الرسالة

(كولوسي ٢: ٨-١٢)

يا إخوةُ انظُروا أن لا يسلِبَكم أحدٌ بالفلسفةِ والغرورِ الباطلِ حسبَ تقليدِ الناسِ على مقتضى أركانِ العالمِ لا على مقتضى المسيح* فإنَّه فيه يحلُّ كلُّ ملء اللاهوتِ جسديًّا* وأنتم مملوؤن فيه وهو رأسُ كلِّ رئاسةٍ وسُلطانٍ* وفيه خُتِنتم خِتاناً ليس من عمل الأيدي بل بخلعِ جسمِ خطايا البشريَّةِ عنكم بِختانِ المسيح* مدفونَين معه في المعموديةِ التي فيها أيضاً أُقِمتم معه بإيمانِكم بعملِ اللهِ الذي أقامه من بينِ الأموات.

الإنجيل

(لوقا ٢: ٢٠ و٢١؛ ٤٠-٥٢)

في ذلك الزمان رجع الرُّعاة وهم يمجّدون اللهَ

ختانة يسوع وتسميته

«ولما تمّت ثمانية أيام ليختنوا الصبي سُمي يسوع كما تسمى من الملاك قبل أن حُبل به في البطن» (لو ٢: ٢١). في الروزنامة الكنسية اليوم هو اليوم الثامن لولادة الرب يسوع، وبحسب الشريعة في العهد القديم، يُختن الصبي في اليوم الثامن (تكوين ١٧: ١٢) ويُعطى إسماً، لذلك نقول في صلاة السحر: «اليوم السيّد قد اختتن بالجسد ودُعي اسمه يسوع».

العدد ٢٠١٧/١
الأحد ١ كانون الثاني
ختانة ربنا يسوع المسيح بالجسد
وتذكار أبينا الجليل في القديسين
باسيليوس الكبير
رئيس أساقفة قيصرية
اللحن الثالث
إنجيل السَحَر السادس

ربُّنا الفائقُ اللاهوت، عندما قَبِلَ بإرادته أن يأخذ طبيعتنا البشرية ليُتحدها بطبيعته الإلهية ويؤلِّهها، قَبِلَ كذلك أن يخضع باختياره للشريعة فخُتن في اليوم الثامن «لأنه هكذا يليقُ بنا أن نكمّل كل برّ» (متى ٣: ١٥). الختانة هي علامةٌ للعهد القديم بين الله وإبراهيم: «ابن ثمانية أيام يختن منكم كلّ ذكر في أجيالكم ... يختن ختاناً وليد بيتك والمُبتاعُ بفضتِّك، فيكون عهدي في لحمكم عهداً أبدياً» (تك ١٧: ١٢-١٣). ولكن الختانة ترمز أيضاً الى استئصال الخطيئة من الإنسان، لذا اعتبرت الكنيسة أن الرب يسوع بقبوله الختان قَبِلَ الإهانة لأنه هو ابنُ الله البريء من الخطأ.

في قنداق العيد نقول: «إن سيّد الكلّ يحتمل الإهانة، فيختنُ زلّات البشر، بما أنه صالح، فيمنح اليومَ الخلاص للعالم». ونعني بهذا أن الرب احتمل الإهانة بأن يُختتن ليستأصل الخطيئة من الإنسان بشكل عام. فهو عندما مات متنا معه، وعندما قام قمنا معه، وعندما خُتن خُتنّا معه. بختان الرب يسوع تطهّرنا نحن كما يقول بولس الرسول: «وفيه (أي في المسيح) خُتنتُم ختاناً ليس من عمل الأيدي بل بخلع جسمِ خطايا البشرية عنكم بختان المسيح» (كول ٢: ١١). إن الخطايا لا تُستأصل إلا بختان القلب، أي بتطهير القلب الذي لا يتحقق إلا من خلال الإيمان بالرب يسوع وبقدرته على منحنا الخلاص.

من جهة أخرى، إن الإسم الذي أُعطي للطفل الإلهي في هذا اليوم الثامن يدلّ على دوره. لقد دُعي ربُنا المتجسّد «يسوع» كما طلب الملاك

من يوسف في الحلم، معلّلاً ذلك عبر إظهار العمل الذي سيتممه إذ قال: «تُسمّيه يسوع فإنه هو يخلّص شعبه من خطاياهم» (مت ١: ٢١). عبر التاريخ، وفي الكثير من الحضارات، هناك ترابط عميق وأساسي بين الإنسان واسمه. عندما يُذكر اسمُ إنسانٍ ما، فإن هذا يستدعي على الفور حامل الإسم ويجعله كأنه حاضرٌ رغم غيابه الجسدي. كذلك إن من ينطق باسم شخص آخر يكون كلامُه صادراً عن هذا الشخص. إذاً كلُّ إسمٍ يحمل حضور وتأثير وقوّة صاحبه، وذلك ينطبق بالأكثر على اسم ابن الله. هذا الطفل الإلهي دُعي «يسوع»، لأنه هو الله المخلّص. لا نحتاج الى تفسير كثير لنفهم معنى «يسوع»، لكننا نحتاج الى حميّة، الى يقظةٍ، الى إيمان، الى شجاعة للمشاركة في اسم «يسوع»، أي في الخلاص الذي تممه الرب.

إن المسيحي يستمدّ قوّته من اسم الرب يسوع. فباسمه طُردت شياطين وتحققت معجزات لا تُحصى وغُفرت خطايا لا عدد لها. ربنا قال لنا: «الحق الحق أقول لكم، إن كلّ ما طلبتم من الآب باسمي يعطيكم» (يو ١٦: ٢٣). وبطرس الرسول علّمنا أنه منح الشفاء للمريض باسم يسوع المسيح الناصري، وأنه: «ليس بأحدٍ غيرِه الخلاص، لأن ليس اسمٌ آخر تحت السماء، قد أُعطي بين الناس، به ينبغي أن نخلص» (أع ٤: ١٠–١٢). بدوره بولس الرسول يقول عن الرب يسوع أنه نال «اسماً فوقَ كلِّ اسمٍ، لكي تجثو باسم يسوع كلّ ركبةٍ ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض» (في ٢: ٩–١٠). لهذا تدعونا كنيستنا المقدسة أن نلهج باستمرار باسم الرب يسوع، وتطلب منا أن نصلّي الصلاة القلبية: «ربي يسوع المسيح ارحمني أنا الخاطئ»، لكي نكون باستمرار في حضرة ابن الله ونستمد منه قوّة لمواجهة تجارب العدو، فيدخل سلامُه الى أعماقنا وتتقدّس أوقاتنا كلُّها ونغرف من فرح اللقاء الدائم مع الله.

في هذا العيد، تعلّمنا أن يسوع هو الإله الذي يخلّص البشر مستأصلاً خطاياهم. نحن لن نستطيع أن نتخلّص من سلطة الخطيئة والموت بقوتنا الذاتيّة فقط ومن دون نعمة المخلّص المبرِّرة. لذلك فلنجتهد لنجعل اسم يسوع محفوراً في قلوبنا على الدوام فتغدوَ قلوبُنا مساكنَ دائمة له، فردوساً على الأرض، ونعاين في ذواتنا كيف يتحقق خلاص ابن الله.

الخطيئة عند القديس باسيليوس

في الأول من كانون الثاني تعيّد الكنيسة الأرثوذكسيّة المقدّسة للقدّيس باسيليوس الكبير رئيس أساقفة قيصريّة الكبدوك. هذا القدّيس هو من المدافعين عن الإيمان القويم وقد اعتبر مع القدّيسين غريغوريوس اللاهوتي ويوحنا الذهبي الفم، أقماراً ثلاث، أعمدةً للإيمان القويم. عاش هؤلاء في زمنٍ (بين القرنين الرابع والخامس) كثرت فيه البدع والهرطقات فهبّوا لتصويب الأفكار اللاهوتيّة وسنّ العقائد حفاظاً على التقليد.

القدّيس باسيليوس اشتهر إلى جانب الناحية الإيمانيّة العقائديّة، بجانبٍ عمليّ. لقد جهد هذا القدّيس لتطوير الحياة الرهبانيّة وحياة المكرّسين للّه وخدمة الجماعة

ويسبّحونه على كلّ ما سمعوا وعاينوا كما قيل لهم* ولمَّا تمَّت ثمانيةُ أيام ليُختنَ الصبيُّ سُمِّي يسوعَ كما سمَّاهُ الملاكُ قبل أن يُحبَل به في البطن* وكان الصبيُّ ينمو ويتقوَّى بالروح ممتلئاً حكمةً وكانت نعمةُ الله عليه* وكان أبواهُ يذهبان إلى أورشليمَ كلَّ سنةٍ في عيد الفصح* فلمَّا بلغ إثنتي عشرةَ سنةً صعِدا إلى أورشليم كعادة العيد* ولمَّا أتمّا الأيامَ بقي عند رجوعِهما الصبيُّ يسوعُ في أورشليمَ ويوسفُ وأُمُّه لا يعلمان* وإذ كانا يظنَّانِ أنَّه مع الرِّفقةِ سافرا مسيرةَ يومٍ وكانا يطلبانِه بين الأقارب والمعارف* وإذ لم يجداه رجَعا إلى أورشليمَ يطلبانه* وبعد ثلاثةِ أيامٍ وجداهُ في الهيكل جالِساً فيما بينَ المعلّمين يسمعهم ويسألهم* وكان جميعُ الذين يسمعونهُ مندهشين من فَهْمِه وأجوبته* فلمَّا نظراهُ بُهتا. فقالت له أمُّه يا ابني لِمَ صنعتَ بنا هكذا. ها إنَّنا أنا وأباك كنَّا نطلبك متوجِّعين* فقال لهما لماذا تطلُبانَني. ألم تعلما أنَّه ينبغي أن أكونَ فيما هو

لأبي* فلم يفهما هما الكلامَ الذي قاله لهما* ثم نزلَ معهما وأتى الناصرةَ وكان خاضِعاً لهما* وكانت أُمُّه تحفظُ ذلك الكلامَ كلَّهُ في قلبها* وأمَّا يسوعُ فكان يتقدَّم في الحكمة والسنّ والنعمة عند اللهِ والناس.

تأمل

أجل، إنه لوارد القول بإنّ المسيح «كان يتقدّم بالحكمة والسن والنعمة» (لو ٢: ٥٢). ذلك أنه فيما كان ربنا يزداد سنًّا، كان – وهو يزداد سنًّا – يكشف كشفاً تدريجيًّا الحكمة المكنونة فيه والتقدّم أيضاً الذي هو للناس في الحكمة والنعمة مع تتميمه مسرّة أبيه أي المعرفة الإلهيّة وخلاص البشر، محقّقاً في ذلك تقدّمه الخاص ومحققاً في ذاته كل شيء يخص طبيعتنا. أما الذين يقولون بأنّ تقدّمه في الحكمة والنعمة قائم بتقبّله زيادة إضافية منهما، فهم لا يقولون بأنّ الاتحاد كان منذ بدء وجود الجسد، أي لا يعتقدون بإتحاد كامل للطبيعتين المسيحيّة بحيث تتحوّل في جانبٍ من جوانبها إلى حالٍ من الخدمة الإجتماعيّة لتمتين الجماعة وشدّ أواصر العلاقات بين المؤمنين. في سعيه نحو تطوير الحياة الرهبانيّة خلّف هذا القدّيس مجموعةً من القوانين التي أغنت الكنيسة وما تزال تثبّت المؤمنين في المجتمع والرهبان في الأديار. من خلال هذه القوانين تطرّق قدّيسنا لغالبيّة الأمور التي قد يواجهها المؤمن في جهاده وسعيه نحو الله.

الكنيسة تدين الخطيئة لا الخاطئ. هذا الأمر محتّم في المسيحيّة. فالخاطئ هو من سقط في تجربة ومن خلال إدانة الخطيئة تدفع المسيحيّة المؤمنين نحو التوبة. الخاطئ يُحذَّر بهدف التوبة ولا يُرفَض، أمّا الخطيئة فتُرفض رفضاً قاطعاً كي لا تتكرّر. بهذه الروحيّة عالج القدّيس باسيليوس موضوع الخطيئة، على غرار الرسول بولس الذي يعتبر الخطيئة «شوكة الموت»(١كو ١٥: ٥٦). لذا وجب الحذر منها واقتلاعها من جذورها. أمّا طريقة التعاطي معها فيقسّمه إلى مراحل. في المرحلة الأولى يجب علينا أن نرذل الخطيئة كما يقول كاتب المزامير «أبغضت الكذب وكرهته» (١١٩:١٦٣). المرحلة الثانية هي في مقاومتها، فبعد رذلها أي إدراكها ورفضها يجب الحذر بألاّ يقع فيها الإنسان مرّةً أخرى. هنا يعطي القدّيس باسيليوس مثلاً عن زكّا العشّار الذي إذ اعترف بخطيئته قاومها بإعادة كلّ ما أخذه ظلماً وتقديم نصف أمواله للمساكين (لو١٩: ٨). هكذا يعلّم القدّيس أنّ مقاومة الخطيئة تتشدّد عبر ممارسة الفضيلة التي هي مضادة للخطيئة. المرحلة الثالثة والأخيرة هي في التوبّج من الخطايا التي يعملها الآخر كما فعل أهل كورنثوس الذين حزنوا لأجل خطايا الآخرين «فإنّه هوذا حزنكم هذا عينه بحسب مشيئة الله كم أنشأ فيكم من الإجتهاد بل من الإحتجاج بل من الغيظ بل من الخوف بل من الشوق بل من الغيرة»(٢كو٧: ١١).

إذاً يجب مقاومة الخطيئة بنبذها. من أعلن توبةً دون نبذ الخطيئة يعتبره القدّيس باسيليوس كاذباً، يترك المجال لنفسه للوقوع مجدّداً في شرك الخطيئة. يشير القدّيس في هذا السياق إلى تصويرٍ قاسٍ من سفر الأمثال حيث يقول «كما يعود الكلب إلى قيئه هكذا الجاهل يعيد حماقته» (أم٢٦: ١١). أن نتوب دون نبذ الخطيئة لهو رفضٌ آنيّ لأمرٍ نعرف أنّه مسيئٌ لنا. يظهر هذا التائب كمن يرفض أمراً لأنّه مؤذٍ له لكنّه حافظ على رغبته فيه بسبب ما يقدّمه له من متعةٍ وإرضاءٍ آنيٍّ للذات. يكون كمن رفض شيئاً دون رفض العودة له في أيّ وقتٍ شعر بالحاجة إلى هذا الإرضاء رغم معرفته بالضرر. لذا يجب على المؤمن ألّا يصاب بالغرور ويغلبه أيّ هوى واثقاً بالقدرة على طلب التوبة ساعة يشاء. صحيحٌ أنّ الله يقبل التوبة، لكن المقصود هي التوبة الحقّة لا التوبة الآنيّة التي بموجبها يكون المؤمن كمن يسدّد فاتورةً ممكن أن يسدّدها أقساطاً أو يؤجّلها كلّ مرّة. على المؤمن بحسب القديس باسيليوس أن يكره سيرته الماضية عند تراجعه عن خطاياه وعليه أن يشمئزّ عند ذكر خطاياه. كتمرين لرفض الخطيئة، على المؤمن أن يضع أمام عينيه وعيد الدينونة والعقاب الأبدي فيرتعش خوفاً ويكره الخطيئة. وإذا تأمّل في

الخطيئة تيقّن المضار العظمى والبلايا الفظيعة التي لا سبب لها سوى انفعاله، ونشأ عنده كره الخطيئة فأبغضها.

القدّيسون أيقنوا وعلّموا أن الإنسان شخصٌ لا فرد، شخصٌ يحيا وسط جماعة، لا فردٌ يحيا على انفراد. من هذا المنطلق يدعونا القدّيس باسيليوس إلى العناية أحدنا بالآخر عنايةً دقيقة لا تتجاوز حدودها لتبلغ الدينونة. يدعونا القدّيس إلى معاقبة أخينا إذا أخطأ إلينا كي نصحّح خطأه دون إدانة. وفي حال لم يتّعظ الآخر من العتب فليكن ذلك في المرة الثانية أمام شاهدين أو ثلاثة ثمّ أمام الجماعة كلّها. هكذا يكون المؤمن قد قام بواجبه محاولًا ردع الآخر عن الخطأ ودفعه إلى التوبة دون الوقوع في خطيئة الإدانة والثرثرة. بالنسبة للقدّيس باسيليوس الصديق الحقيقي هو من يؤدّب ويوبّخ على الخطيئة لا من يصمت عنها. لأن من يصمت يُحسب بمنزلة من يدع السمّ في باطن من لسعته حيّة ولا يُخرجه منه. فعلٌ كهذا يهدم المحبّة التي تتأنّى وترفق. لكن هذه المحبّة يجب ألاّ تقودنا إلى الدفاع الأعمى، أي دون تمييز، عن الخاطئين. بمعنى آخر يجب أن ننتبه وألاّ نتغاضى، بدافعٍ من المحبّة، عن خطيئة القريب بل أن ننبّهه كي يتوب. من يتوانى عن هذا الأمر ولو بدافع المحبّة يقول عنه القدّيس أنّ دينونته أثقل من دينونة الذين يستوجبون أن يُعلّق في أعناقهم حجر الرحى ويلقوا في البحر (لو١٧: ٢) لأنّهم يبعِدون الخطأة عن التوبة ويشجّعونهم، ولو بطريقةٍ غير مباشرة، على فعل الشر ويشكّكون الغير ويكونون له سبباً لأن يسقط في مثل تلك الرذائل.

الخطيئة وجدت منذ خلق الإنسان، وكانت دعوة الرب للأوّلين بأن يتجنّبوها. هذه الدعوة تستمرّ معنا إلى اليوم رغم تعدّد أنواع وأشكال الخطيئة. الآب رحومٌ ويقبل توبتنا في أيّ ساعةٍ أتت إلّا أنّه على الإنسان أن يقدّم توبةً صادقةً يتجنّب من خلالها العودة إلى الوراء. الرب كما في مثل الإبن الشاطر ينتظرنا دائماً ليقودنا في طريق الخلاص هو الذي قبِل الصلب من أجلنا ليعتقنا من الخطيئة. يبقى على المؤمن أن يرحم نفسه ويُعتقها بالإلتصاق بالله والمثابرة على رفض الرذيلة وعيش حياة الفضائل. آدم الأوّل رفض التوبة وحاول التهرّب من الله ثمّ ألقى باللّوم على المرأة. أمّا المؤمن اليوم فمدعوٌّ إلى الإعتراف بخطاياه وممارسة التوبة الصادقة وإلهنا رحيمٌ يقبل الأوّل كما يرحم الأخير على أن نكون أمناء للمحبّة التي أظهرها لنا وكان أن تجلّت بكمالها على الصليب بموته لأجلنا.

الظهور الإلهي

في مناسبة عيد الظهور الإلهي يترأس سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس خدمة القداس الإلهي عند العاشرة من صباح الجمعة ٦ كانون الثاني ٢٠١٧ في كاتدرائية القديس جاورجيوس في ساحة النجمة.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb

الإلهية والبشرية في أقنوم المسيح، بل أظنُّهم يشعوذون مع نسطوريوس الباطل، بقولهم باتحاد شكليّ ومجرّد مساكنة، «وهم لا يفهمون ما يقولون ولا ما يثبتون» (١ تيمو ١: ٧). فإذا كان الجسد قد اتحد حقًّا بالله الكلمة منذ بدء وجوده، بل إنه قد ابتدأ فيه ونال فيه وحدة هويّته الأقنوميّة، فكيف هو لم يستملك استملاكاً تاماً كلّ حكمة ونعمة؟ والأمر ليس أنّ هذا الجسد قد اشترك بالنعمة أو حظي على نعمة مما هو للكلمة، بل بالأحرى – بسبب اتحاد الطبيعتين الإلهية والبشرية في أقنوم المسيح – قد صارت البشريات والإلهيّات مسيحاً واحداً. وعليه، فإنّ ذاك نفسه الذي كان إلهاً وإنساناً معاً، كان جسده ينبع النعمة والحكمة ويفيض الخيرات للعالم.

القديس يوحنا الدمشقي